المحاضرة (02)

عُنْوَانُ المُحَاضَرَةِ: مفهوم الحداثة

المدةُ: ساعة

الفئةُ المُستهدفةُ: طلبة السنة الثانية ماستر، تخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

تَمْهِيدٌ:

الحداثةُ من القضايَا المُهمةِ، التي شَغلَت الكُتّابَ والمُفكرينَ الغربَ والعربَ، وترجعُ أهَمِيتُها إلى اتصَالِها بِحَياتِنا كُلها، وليسَ بالفكرِ فَقط، ورغمَ أهَميتِها إلاّ أنَّ لهَا مخاطرٌ كبيرةٌ، خاصةً في مُجتمعنَا العَرَبِي، هذهِ الخطورةُ تكمنُ في أنّهَا تَستهوي المُغرمِينَ بكُلِ جَديدٍ، والعَاشقينَ للمُغامَراتِ، بِأَيّ صُورةٍ مِنَ الصُورِ.

ولمَعرِفَةِ واكتشافِ الغَرب للعقليةِ العربيةِ، -وأساليبِ تفكيرها، المُعتمدة على الاندهاشِ والانبهارِ بكلِ جديدٍ-، يُواصلُ الآخرُ التأثيرَ الانبهارِي هذَا، عَن طريقِ تصديرِ كُلِ مَا هُو جَدِيد ومُستحدَث، ليظلَّ العقلُ العربي يعيشُ في تيهِ الدهشةِ والانبهارِ.

وبهذَا نستطيعُ اعتبارَ مفهومِ "الحداثةِ" من أشدِّ المفاهيمِ إثارةً للجدلِ وللتساؤلاتِ، كما نستطيعُ اعتبارَهُ مِنْ أكثرِ ظواهرِ النقدِ بحثًا وتَقصٍ، حيثُ تأتي أهميتُهُ من تنوعِ مفاهيمهِ وتعاريفهِ وحقولهِ المُتشعبةِ.

1-مَفْهُومُ الحَدَاثَةِ:

1-1- الجِذْرُ اللُغَوِيُ العَرَبِيُ لِمُصْطَلَحِ الحَدَاثَةِ:

يتحدَّدُ معنى "الحداثة" لغةً في قولِهم: حدَثَ الشيءُ، يحدُثُ حدَثاً، وحداثَةٌ وأحدثَهُ، فهو مُحْدَثٌ وحَدِيثٌ، وكذلكَ اسْتَحدَثَهُ، فالحَدِيثُ هو إيجادُ شيءٍ لم يكنْ، وابتدَعهُ، والحدِيثُ والحُدُوثُ: نَقِيضُ القديمِ والقِدْمَة، وكونَ الشيءِ لم يَكُنْ، وما ابتَدعَ، والمُحْدَثُ هو الأمرُ المُبتدَعُ، واستَحدثتُ خَبَراً؛ أي وجدتُ خَبَراً جَديداً، والحَديثُ الجَديدُ من الاشياءِ، والحَدثُ هو الشَبابُ، أو الأمرُ المُنكرُ، الذي ليس مُعتاداً ولا مَعروفاً، العَالَمُ مُحدَثٌ؛ أي لهُ صانعٌ وليس بأزلِي، فالحداثةُ هي الجِدَّةُ، وأولُ الأمرِ وابتداؤُه[1].

حَدَثَ: الحَديثُ: نَقِيضُ القديمِ، والحُدُوثُ: نَقيضُ القُدْمةِ، حَدَثَ الشيءُ، يَحْدُثُ، حُدوثًا، وحَداثَةً، وأَحْدَثَهُ هو، فهو مُحْدَثٌ وحدِيثٌ، وكذلكَ اسْتَحدَثهُ.

وأخَذَني من ذلكَ ما قَدُمَ وحَدُثَ، ولا يُقالُ حَدُثَ، بالضم، إلاّ مع قَدُمَ؛ كأنهُ إتباع، ومثلهُ كثير.

وقالَ "الجوهري": لا يُضَمُّ حَدُثَ في شيءٍ من الكلامِ إلاَّ في هذا الموضعِ، وذلكَ لمكانِ قَدُمَ على الازدِواجِ.

وفي حديثِ "ابن مسعود": أنهُ سَلَّمَ عليهِ وهو يُصلي، فلم يَرُدَّ عليهِ السلامَ، قالَ: فأخذَنِي ما قَدُمَ وما حَدُثَ؛ يعني همُومهُ وأفكَارَهُ القدِيمَةَ والحدِيثَةَ.

يقالُ: حَدَثَ الشيءُ، فإذا قُرنَ بِقَدُمَ ضُمَّ للازدواج.

والحُدُوثُ: كونَ شيءٍ لم يكُنْ، وأحدَثَهُ اللهُ فَحَدَثَ، وحَدَثَ أمرٌ؛ أي وَقَعَ.

ومُحدَثاتُ الأُمورِ: ما ابتدعهُ أهلُ الأهواءِ، مِن الأشياءِ التي كانَ السَّلفُ االصالحُ على غيرِها، وفي الحديثِ: إياكُم ومُحدثاتِ الأُمورِ، جَمْعُ مُحْدثَةٍ بالفتحِ، وهي ما لم يَكُن مَعروفًا في كتابٍ ولا سُنَّةٍ ولا إجماعٍ[2].

وورد في القاموس: (المنجد)، الصفحة: 121، أنّ "الحداثةَ" هي مصدرٌ للفعلِ الثلاثي المُجرد "حَدَثَ"، والحداثةُ من الأمرِ، أولهُ وابتداؤهُ، ويقابلُها في المعنى: القَدَامَةُ، وهي مصدرٌ للفعلِ: قَدَمَ، وقَدَامَةُ الشيء؛ أي مَضَى على وجودهِ زمنٌ طويلٌ ...

ومنهُ يتحدّدُ معنى "الحداثة" لغةً؛ بمعنى: الجِدَّةُ، وأولُ الأمرِ وابتداؤه.

1-2- الجِذْرُ اللُّغَوِيُ اللاَتِينِيُ لِمُصْطَلَحِ الحَدَاثَةِ:

الجذرُ اللغوي اللاتيني لمصطلحِ الحداثةِ: وردَ في قاموسِ "Larousse" أنَّ: "Modernité" مأخوذةٌ من المصطلحِ "Moderne"؛ بمعنى حَدِيثٌ، والمشتقُ بدورهِ من الجذرِ اللاتيني "Modernu"؛ والتي تعني: قريبَ العهدِ.

فالحداثةُ إذن، هي: "ما ينتمِي إلى العصرِ الحاضرِ، أو يُناسبُ الوقتَ الحالِي، بِمَا يتطابقُ وأحداثَ التطوراتِ"[3].

1-3- المَعْنَى الإِصْطِلاَحِيُ لِلحَدَاثَةِ:

ما يهُمنا هُنا، هو المعنى الاصطلاحي لـ"الحداثةِ" "Modernité"، فالحداثةُ من المفاهيمِ التي جرى حولَها جدلٌ ولغطٌ كبيرٌ، فإذا كانت "الحداثةُ" مبنيةٌ بالأساسِ على المعنى اللغوي، فإنها تحملُ عديدَ الإيحاءاتِ والمعاني والمضامين الجديدةِ، وبالتالي منَ المتعذرِ أنْ نخرُجَ بتعريفٍ جامعٍ متفقٍ عليهِ، أو حتى بإيضاحٍ يتقبلهُ كلُ الباحثينَ المشتغلينَ بهذَا الموضوعِ، حيثُ تتضاربُ دلالاتُ الحداثةِ عندهُمْ، فالموقفُ منَ الحداثةِ لابدَّ أنْ يتأثرَ بالموروثِ: الثقافِي / الدينِي / الأخلاقِي، وما اكتسبهُ الخَلَفُ من السَلَفِ، وعلى العمومِ، لابدَّ أنْ يتأثرَ بالواقعِ الاجتماعِي الطَبقِي، والواقعِ الاقتصادي المُهيمنِ، وبطبيعةِ الطبقةِ السياسيةِ التقليديةِ الحاكمةِ، -وهذا التضاربُ أو التقاطعُ في مفهومِ الحداثةِ سوفَ نعودُ إليهِ لاحقًا عندمَا نستعرضُ آراءَ المتحمسينَ للحداثةِ وآراء المناوئينَ لهَا-، ولنعكفَ بدايةً على نشأةِ مفهومِ الحداثةِ.

2- نَشْأَةُ الحَدَاثَةِ:

أَرَّخَ النقادُ لبدايةِ إرهاصاتِ الحداثةِ في أوروبَا منذ (1890)، من خلالِ أسُسٍ واضحةٍ قامتْ عليهَا، هي "الرمزيةُ الجماليةُ"، و"النظريةُ الطبيعيةُ للفنِ" في مجموعةٍ منَ الروافدِ، اتَّحَدَتْ مع بعضِها، لتُكَوّنَ تيارًا لا يُستهانُ بهِ، مثلما قالَ: "مالكوم براد بري"، أمّا بعضُ النقادِ الآخرين فيؤرخونَ للحداثةِ من عصرِ التنوير، ويرى البعضُ الأخرُ أنها تبدأُ من عصرِ النهضةِ، ومع ذلكَ في النهايةِ تُمثلُ الحَداثةُ ثورةً على كافةِ التقاليدِ الفنيةِ الكلاسيكيةِ والرومانسيةِ، من خلالِ ثلاثةِ اتجاهاتٍ، هي:

-الاتجاهُ الأولُ: نقدُ الفنِ، خاصةً فلسفةُ الفنِ، عندَ كانط وهيغل.

-الاتجاهُ الثانِي: الاهتمامُ بما يُسمى: (الميتا-آرت)، وذلكَ بإعادةِ النظرِ في الفنِ، ورفضِ الإيهامِ بالحقيقةِ في الفنِ، بلْ وإعادةُ الخَلقِ، وتأكيدُ التأملِ العميقِ.

-الاتجاهُ الثالثُ: العودةُ للبدايةِ وللأقنعةِ الإغريقيةِ عند "بيكاسو" على سبيلِ المثالِ، فالحداثةُ هي الثورةُ على الواقعِ والتمردُ عليهِ، منْ كلِ الوجوهِ: سياسيًا، وفكريًا، ودينيًا، وجماليًا، وأدبياً[4].

ليكونَ السؤالُ المطروحُ متعلقًا بطبيعةِ التحولاتِ المعرفية في بيئةِ الغربِ، فما هي تلكَ التحولاتُ؟

إنَّ بدايةَ القرنِ 17م ليستْ تاريخًا عفويًا في الواقعِ، لنبدأَ بهِ رصدَ هذه التحولاتِ المعرفيةِ الجذريةِ، التي غيّرت الكثيرَ من البنى الفكريةِ في العقلِ الغربي، ربما يكونُ من الصعبِ تحديدُ تاريخٍ بعينهِ، تاريخٍ يرتبطُ مثلاً باسمِ "فرانسيس بيكون" أو "جون لوك"، لكن بدايةَ القرنِ 17م تعتبرُ بدايةً مناسبةً، وهي بالفعلِ علامةٌ فارقةٌ، كانَ عصرُ النهضةِ قد جاءَ ووصلَ إلى ذروتهِ، والنهضةُ الأوروبيةُ لم تكسِر قوالبَ الجمودِ والتخلفِ فقط، لكنها بعثتْ في الحياةِ الثقافيةِ الأوروبيةِ روحًا جديدةً تمامًا، في مقابلِ الجمودِ والتخلفِ والتحجرِ تظهرُ روحُ المغامرةِ الفرديةِ والمخاطرةِ، في مواجهةِ المألوفِ تجيءُ الرغبةُ في اكتشافِ

المجهولِ وغيرِ المألوفِ، بل والغريبِ، وهكذا ارتبطت ذروةُ النهضةِ تلكَ برحلاتِ الاستكشافِ والمغامرةِ والرغبة في معرفةِ ما وراءَ حدودِ المعروفِ*، لقد بدأ الإنسانُ الغربي مع عصرِ النهضةِ رحلةَ تأكيدِ الذاتِ، التي ستصلُ إلى ذروتها في العصرِ الرومانسي في السنواتِ الأخيرةِ من القرنِ 18م والسنوات الأولى من القرن 19م[5].

إذَا كانَ النقادُ مجمعونَ على نشأةِ الحداثةِ في الغربِ، إلاَّ أنهم مُختلفونَ على التأريخِ لهَا، فغالبيةُ الباحثين يرونَ أنَّ بواكيرَ الحداثةِ بدأت منذُ أواخرِ القرنِ 19م في الغربِ، وفي حقولِ الأدبِ خاصةً، بعدَ أنْ قوّضَت الرومانسيةُ أركانَ الكلاسيكيةِ، لتنشأَ الحداثةُ على أيدي شعراءِ فرنسا: "شارل بودلير" " Charle Baudlair" (1821-1867)، و"آرثر رامبو" "Arthur Rimbaud" (1854-1891)، و"مالارميه" "Mallarmé" (1842-1898)؛ أي مع نهايةِ الرومانسيةِ وبدايةِ الرمزيةِ كمذهبٍ، لتظهرَ بعدهَا مذاهبٌ أدبيةٌ أخرى، كمذهبِ الفنِ للفنِ مثلاً.

ولكنَّ هناكَ من يعودُ بمصطلحِ الحداثةِ إلى القرنِ 15م: (الحداثةُ الدينيةُ)، وذلكَ بربطهِ بحركةِ القسِ الألماني "مارتن لوثر"، الذي قادَ الشقاقَ البروتستانتي ضدَّ الكنيسةِ والتمرد على سُلطتِها الروحيةِ*، دونَ أنْ نُغفلَ الحديثَ عن تطورِ التقنيةِ والتكنولوجيا: (النهضةُ الصناعيةُ)، التي سهّلَت ومهّدَت لهذا التمردِ، لاسيمَا اختراعُ الطباعةِ التي قالَ فيها القِسُ "مارتن لوثر" نفسهُ: إنها من أسمى فضائلِ الربِ على عبادهِ ... ومنهم كذلكَ منْ يربطُ الحداثةَ بـ"ديكارت"، صاحبُ مذهبِ الشَّكِ في القرنِ 17م؛ أي إعمالُ العقلِ وإعادةُ النظرِ في كلِّ شيءٍ، ومنهم من يربطُ المصطلحَ بعصرِ التنويرِ في القرنِ 18م، حيثُ ميدانهُ العقلُ والاستنارةُ على ضوءِ العلمِ والتكنولوجيا، وأخيرًا هناكَ من يربطُ مفهومَ الحداثةِ بمطالعِ القرن 20م؛ أي بالامبرياليةِ، على خلفيةِ النزعةِ الغربيةِ الاستعماريةِ[6].

من هُنا يمكنُ القولُ: إنَّ التحديثَ أو الحداثةَ -رغمَ التمايزُ بينهُما كما يرى بعضهُم- حالةٌ دائمةٌ، وعمليةٌ مستمرةٌ في إعمالِ الفكرِ، تتجاوزُ الواقعَ المعيشَ، وتتطلعُ نحو التجديدِ، وترفضُ كثيرًا من القيمِ التقليديةِ السائدةِ، لكن قَد لا يبدُو تبلورُها واضحًا كما هي اليوم، بسببِ معاندةِ الظروفِ، واندحارِ المفهومِ أمامَ قوةِ وهيمنةِ الفكرِ السائدِ، لذلكَ فالحداثةُ أو التحديثُ قد استغرقَتْ وقتًا للنضوجِ، خاصةً في بيئةِ العربِ، لتتطورَ مع مرورِ الزمنِ، وتصبحَ أكثرَ جِدَّةً وقوةً وغِنى، وفِي هذَا السياقِ نستطيعُ القولَ: ألمْ تكُن دعوةُ "أبِي العلاءِ المَعري"، -الذي كانَ يرى أنَّ لا إمامَ سوى العقل، وقوله: (فَكُلُ عقلٍ نبي)-، تعتبرُ رفضًا للفكرِ السائدِ، ودعوةً لتحديثهِ، فقد تَهكَّمَ مِن مُعتقداتِ وطرائقِ العبادةِ لدى الديانتينِ المسيحية والإسلامية، يقولُ: (كلٌّ يُعظّمُ دينَهُ ... يا ليتَ شِعري ما الصَحِيحُ)، واِعتَبرَ الدُنيا الثانيةَ؛ أي الآخرةَ، خرافةً، لتَأتِي بعدَ ذلكَ فترةُ السُباتِ في عهدِ "الإمامِ الغزالي"، الذي رفضَ إعْمَالَ الفكرِ في هذهِ المناحِي الجدليةِ، ورأى السَّلامَةَ في إتّبَاعِ سُنَنِ الأقدَمِينَ، والخَطرَ في البحثِ والتقصي... وكانتِ الظروفُ مُلائمةً لرؤيتهِ السلفيةِ، فخمَدتْ جذوةُ التفكيرِ التحديثي / العقلي الحُرِ، وأُخلِدَت إلى كُمونٍ أو سُباتٍ -كما قُلنا سابقًا- ولو إلى حينٍ..

هوامش المحاضرة:

1- الخليل بن احمد الفراهيدي: كتاب العين، تح: الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور إبراهيم السامرائي، الجزء الثالث، مادة (حدث): ص 177.

2- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة (حدث): المجلد الثاني، ص ص 131.

3- Petit Larousse: Compact, ibid.

4- عبد الرحمان عبد الحميد علي: النقد الأدبي بين الحداثة والتقليد، دار الكتاب الحديث، مصر، ط1، 2005، ص92.

*** روحُ المغامرةِ تلك أدّت في النهايةِ إلى الفتوحاتِ والغزو الأوروبي لمناطقٍ عديدةٍ من العالمِ، لكنها كلها بدأت بروحِ المغامرةِ الفرديةِ، وهذا بالطبعِ يُعيدُنا إلى موضوعِ الذاتِ.**

5- عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، السلسلة 232، إبريل 1998، ص80.
*** ارتبطت الحداثةُ في بداياتِها بالعقيدةِ الدينيةِ المسيحيةِ البروتستانتيةِ، حيث وجِدَت لتُعبّرَ عن هذا التوجهِ الجديدِ، الذي حاولَ إعادةَ تأويل تعاليمِ الكنيسةِ الكاثوليكيةِ، وفقَ طروحاتٍ فكرية وتاريخيةٍ جديدةٍ.**
6- دهام حسن: الحـــداثةُ: لغةً واصطلاحًا ونشأةً، https://www.zamanalwsl.net.